

أعضاء البيان

@ 172 @ فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر ، فإذا نجاهم إياهم وفرج عنهم ، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر . كما قال تعالى : { فَلَا مَسَّ لَكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَافُورًا } . .

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة . كقوله : { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَّيْنَهُمَا بِهِمْ بَرَيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَجُونَا بِهِمَا جَاءَتْهُمَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَنُّوْا أَرْهَهُمْ أُحْيطَ بِهِمْ دَعَوُا إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّآ أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ، وقوله : { قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْ هَٰذَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ } ، وقوله : { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوُا إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّآ نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } ، وقوله : { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّآ نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا لَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ ثُمَّ إِذَا خَوَّاهُ عَارِفُ آلِهِ لِيَرْجِعَهُمْ إِلَى اللَّهِ يَنْعَمَ عَلَيْهِمْ نَبَا لِمَنْ كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْتَدَادًا لِّمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } ، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه (في سورة الأنعام) وغيرها . .

ثم إن الله جل وعلا بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار ، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله . مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر ، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض ، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم ، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة . كما قال هنا منكرًا عليهم أنهم وكفرهم بعد وصول البر { أَفَوَلَّامِنْتُمْ أَنْ

يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الدِّرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا { وهو المطر أو
الريح اللذين فيهما الحجارة } قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ
{ أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار الشديدة التي
تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام : قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ { أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار
الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام : % (إن الرياح إذا ما أعصفت
قصفت % عيدان نجد ولا يعبان بالرم) % .
يعني : إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد رتماً كان أو غيره .